أبو العلاء المعري يرثي أمه (تحليل فني)

(أدب عربي)

د/ عبد الله رمضان
قسم الأدب والنقد
كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
arharidy@gmail.com

خلاصة—هذا البحث

تحليل فني لمقاطع من قصيدة أبي العلاء المعري في رثاء أمه، وفي هذه المقاطع يتحدث عن الزمان وقسوته والموت وسطوته وأنه لا يفلت منه أقوى الأقوياء فما بالنا بالضعفاء؟!!

الكلمات المفتاحية: رثاء، فناء، المعري، أبو العلاء، معرة النعمان، الشام، القرن الرابع.

I. *المقدمة*

يعرض أبو العلاء لوحة أخرى من لوحاته الممتدة يذكر فيها أن حساب الدهر لا يخطئ الأسد القوي الذي يشرب من الدم فيتلذذ به كأنه خمر، ثم يستطرد في وصف هذا الأسد، وكلها أوصاف تصب في معاني القوة والهيمنة والسيطرة.

II. موضوع المقالة

ينتقل أبو العلاء إلى لوحة أخرى من لوحاته الممتدة يذكر فيها أن حساب الدهر لا يخطئ الأسد القوي الذي يشرب من الدم فيتلذذ به كأنه خمر، ثم يستطرد في وصف هذا الأسد، وكلها أوصاف تصب في معاني القوة والهيمنة والسيطرة، وكأن الشاعر يؤكد الحقائق السابقة التي تتحدث عن الزمان الذي لا يستقر على حال.

فهذا الزمان الذي لم يخطئ ذلك الأسد القوي الشديد من الأولى به ألا يخطئ ذلك الإنسان الضعيف ولا سيّما إذا كان هذا الإنسان في مثل حال أبي العلاء الذي فقد نعمة البصر وكأنه يُصَبِّرُ نفسه عما آل إليه حاله بعد رحيل الأم، يقول أبو العلاء:

ولا يُشْوي حِسَابَ الدَّهرِ وَرْدٌ ... لَهُ وِرْدٌ مِنَ الدَّمِ كَالمُدَامِ

يُغَذّيهِ البَعُوضُ بِكُلّ غَابٍ ... فَرِيشٍ بِالجَمَاجِمِ واللِّمَامِ

بَدَا قُدّعَا الفَرَاشَ بِنَاظِرَيهِ ... كَمَا تَدْعُوهُ مُوقِدَتَا ظَلَامِ

وبعد حديث أبي العلاء عن ذلك الأسد الذي لا يخطئه الدهر حيث يصيبه داء الفناء يحدثنا في لوحة تالية عن حية قوية يكاد سُمُّهَا يعصف بجبل شمام فيجعله كثيبا مهيلا من شدة بأسه وفتكه، وعلى أرجائها وفي كل بقعة منها تطل المنايا برأسها، وهذه الحية المهلكة التي لا تقل في شدتها وبأسها عن ذلك الأسد الذي تحدث عنه لا يغفل عنها الدهر أيضا وهذه اللوحة تشترك مع سابقتها في تشابه المغزى الذي أوردها الشاعر من أجله، وهو أن الدهر لا يبقي على شيء حتى لو كان مثل هذه الحية القوية؛ فما بالك بضعيف مثله؟

ولا مُبْقٍ إذا يَسعَى صُدُوعًا ... غَوَائِرَ في الذَّكَادِكِ والإكَامِ

حُبَابٌ تَحْسَبُ النَّفَيَانَ مِنْهُ ... حَبَابًا طَارَ عَنْ جَنَبَاتِ جَامِ

تَطَلّعَ مِنْ جِدَارِ الكَاسِ كَيمَا ... يُحَيِّيَ أَوْجُهَ الشَّرْبِ الكِرَامِ

يَهُمُّ شَمَامِ أَنْ يُدْعَى كَثِيبًا ... إذا نَفَثَ السِّمَامَ عَلَى شَمَامِ

وبعد هاتين اللوحتين اللتين تحدث فيهما عن الأسد والحية ينتقل بنا إلى قبائل عامر بن صعصعة وهم قوم أشداء يقطعون السبيل، ويستطرد في وصف هؤلاء القوم مظهرا مدى بأسهم وقوتهم وكثرتهم، وإذا فُهِمَ استطراد الشاعر في وصف قبائل عامر على أنه يتحدث عن المشقة والهول الذي كاد أن يعصف به وهو في طريقه من العراق إلى الشام وكفى

كما فهمه بعض القدماء(١) فإن هذا الاستطراد الطويل يخرج بنا بعيدا عن نسق اللوحات والأفكار الواردة في القصيدة؛ لذلك أعتقد أن استطراد أبي العلاء في وصف قبائل عامر وتطرقه إلى مفردات عديدة خاصة بصورة هذه القبائل ـ وأكثرها يدل على القوة والسيطرة والمنعة ـ ما هو إلا تأكيد لفكرة اللوحتين السابقتين وهي أن الدهر قادر على إفناء أي شيء حتى لو كان هذا الشيء قبائل عامر الأقوياء؛ لذلك فهو على مثله ومثل أمه أقدر، فلا سبيل إذن للجزع لأن الفناء سنة ماضية لا تستثني أحدا مهما كان:

إلى من جُبْتُ والحِدْثَانُ طَاوٍ ... قَبَائِلَ عَامِرٍ لا كُنْتَ عَامِ

وقَدْ أَلِفُوا القَنَا فَغَدَتْ عَلَيهِمْ ... رِمَاحُهُمُ أَخَفَّ مِنَ السِّهَامِ

كَأَنَّ بَنَانَةً في الكَفِّ زِيدَتْ ... قَنَاةً غَيرَ جَاذِيَةِ القَوَامِ

وتَبْيَضُّ البِلادُ إذا أَرَاحُوا ... بِمَا نَضَحَتْهُ أَخْلافُ السَّوَامِ

ويعود أبو العلاء بعد هذه اللوحات الممتدة ليخاطب أمه خطابًا مباشرًا، ويشير في ثنايا هذا الخطاب إلى فضلها عليه، وأنه لا يستطيع أن يكافئها لما لها عليه من نعم سابغة حتى إن جسمه لا يستطيع أن يحمل هذه النعم ولو كان في عظم خلق النخل، وهذه النعم كفته وروته حتى إنه لا يطلب سواها ريًّا له:

وَلَو أَنَّ النَّخِيلَ شَكِيرُ جِسمِي ... ثَنَاهُ حَمْلُ أَنْعُمِكِ الجِسَامِ

كَفَانِي رِيُّهَا مِنْ كُلِّ رِيٍّ ... إلى أَنْ كِدتُ أَحْسَبُ في النَّعَامِ

وَلِمَ لا يكون لها عليه الفضل والنعم الغزيرة، وهي أمه، وفوق هذا فهي من بيت كرم وفضل، وذات أصل ونسب عريق:

وَكَمْ لَكِ مِنْ أبٍ وَسَمَ الليالي ... عَلَى جَبَهَاتِهَا سِمَةَ اللئَامِ

مَضَى وتَعَرُّفُ الأعلامِ فِيهِ ... غَنِيُّ الوَسْمِ عَنْ أَلِفٍ ولامِ

ثم يختم مرثيته بالدعاء لها بالسُّقيا. وكما تمايز دعاء الصنوبري لأمه بالسقيا عن دعاء أبي فراس، فكذلك تمايز أبو العلاء عنهما، فدعاؤه لأمه جاء امتدادا للمعاني السابقة التي يصف فيها أمه بأنها كثيرة الإنعام عليه، وبأنها من بيت كرم وفضل، وعلى هذا فإنه يدعو لها بالسقيا التي تناسبها، فإذا مر سحاب جهام بقبرها فإنه لن يكون جهاما حيث سيصيبه من كرمها وجودها وهي في قبرها فيمطر، ويدعو لها أن يسقي محلها قطر من السماء لكنه ليس كأي قطر بل هو قطر كالبحار، فلا يكتفي بأن يسقي محل أمه مجرد قطر يسقط من الغمام، إذ لا يناسب عظمة هذه الأم الكريمة إلا سقيا عظيمة قطرها كالبحار:

سَقَتْكِ الغَادِيَاتُ فَمَا جَهَامٌ ... أَطَلَّ عَلَى مَحَلِّكِ بالجَهَامِ

وقَطْرٌ كالبِحَارِ فَلَسْتُ أَرْضَى ... بِقَطْرٍ صَابَ مِنْ خَلَلِ الغَمَامِ

---

(١)في شرح بيت أبي العلاء الذي تبدأ به هذه اللوحة وهو:

إلى من جبت والحدثان طاو ... قبائل عامر لا كنت عام

يعلق البطليوسي شارحا البيت:يقول (أي أبو العلاء): إنما كنت تكلفت ركوب المسالك وخوض الشدائد والمهالك لألقى أمي، وأبلغ من التشفي بلقائها همي، فإذا لم ألقها فإلى من جبت القفار المهلكة، ولم سلمت من الفتن المردية! وهلا أكلتني الحوادث فيمن أكلت وقتلتني فوارس عامر فيمن قتلت! وأراد عامر بن صعصعة وما كان من إثارتهم للفتنة التي ذكرها في قوله:

ولا فتنة طائية عامرية ... يحرق في نيرانها الجعد والسبط